التصوف الاسلامى

نشأته ورسالته

للدكتور أحمد غلوش

رئيس جمعية منع المسكرات

— ٣ —

نشأة الطرق الصوفية

وقد كان تأسيس أول طريقة نظامية من الطرق الصوفية الطريقة العلوانية لمؤسسها الشيخ علوان فى سنة ١٤٩ هجرية (٧٦٦ ميلادية) وبعد ذلك توالى إنشاء الطرق الأخرى بتوالى القرون وكانت كل واحدة منها تسمى باسم شيخها ومؤسسها، وقد يتعذر اليوم تعداد الطرق الموجودة الآن لكثرتها . فنجتزئ الآن بذكر أشهرها .

اسم الطريقة	مؤسسها	تاريخ تأسيسها
١ العلوانية	الشيخ علوان المدفون بجدة	١٤٩ هـ — ٧٦٦ م
٢ الأدهمية	الزاهد إبراهيم بن أدهم المدفون بدمشق	١٦١ هـ — ٧٧٧ م
٣ البسطامية	الإمام أبو يزيد البسطامى «جبل بسطام»	٢٦١ هـ — ٨٧٤ م
٤ السقاطية	الإمام سرى الدين السقطى المدفون ببغداد	٢٩٥ هـ — ٩٠٧ م
٥ الجيلانية	سيدى عبد القادر الجيلانى المدفون ببغداد	٥٦١ هـ — ١١٦٥ م
٦ الرفاعية	سيدى السيد أحمد الرفاعى المدفون ببغداد	٥٧٦ هـ — ١١٨٢ م
٧ السهروردية	الإمام شهاب الدين السهروردى	٦٠٢ هـ — ١٢٠٥ م
٨ الشاذلية	سيدى أبو الحسن الشاذلى «القصير بالبحر الأحمر» .	٦٥٦ هـ — ١٢٥٨ م
٩ المولوية	سيدى جلال الدين الرومى « قونية »	٦٧٢ هـ — ١٢٧٣ م

اسم الطريقة	مؤسسها	تاريخ تأسيسها
١٠ الأحمدية	سيدى أحمد البدوى — طنطا	٦٧٥ هـ — ١٢٧٦ م
١١ النقشبندية	سيدى بير محمد نقشبند — قصر عرفان	٧١٩ هـ — ١٣١٩ م
١٢ السعدية	الإمام سعد الدين — دمشق	٧٣٦ هـ — ١٣٣٥ م
١٣ البختاشية	سيدى الحاج بختاش — كيرشر بالبانيا	٧٥٦ هـ — ١٣٥٦ م
١٤ الخلوتية	سيدى عمر الخلوتى — قيصرية	٨٠٠ هـ — ١٣٩٥ م
١٥ البرهامية	سيدى الحاج برهام — أنقره	٨٧٦ هـ — ١٤٧١ م
١٦ البكرية	سيدى أبو بكر الوفائى — حلب	٩٠٢ هـ — ١٤٩٦ م
١٧ الجلشانية	سيدى إبراهيم الجلسانى — القاهرة	٩٤٠ هـ — ١٥٣٣ م
١٨ الجمالية	سيدى جمال الدين — اسطامبول	١١٦٤ هـ — ١٥٧٠ م

فهذه الطرق الصوفية المشهورة وكثير غيرها مما لم نذكره ليس من خلاف بينها من حيث الأسس والمبادىء الأصلية وإنما الفرق فى نوع الاذكار والأوراد التى يواظب عليها المريدون من أتباع كل طريقة منها فقد يفتح الله تعالى على واحد منهم بطريق الإلهام ويؤتى حظا كبيرا من الأنوار القدسية فيكاشف بفائدة ذكر اسم معين من أسماء الله الحسنى فيكون ذلك سبباً أو أساساً لإنشاء طريقة جديدة مشتقة فى الواقع من طريقته الأصلية ومن ثم كان تعدد الطرق الصوفية على تقادم العصور والأزمان.

وليس فى الإمكان أن نأتى على تبيان مختلف الاذكار والأوراد وصنوف الرياضات ومدارك السلوك لدى أرباب الطرق المتنوعة وحسبى أن أصف بالإيجاز المراحل التى يقطعها أتباع الطريقة الخلوتية وقد قطعتها بنفسى بتوفيق الله وبإرشاد شيخى العارف بالله سيدى عبد الله بن محمد البناء المدفون فى الإسكندرية قدس الله سره وهذا الوصف ينطبق فى مجموعه على حال الطرق الأخرى — فأقول :

طريق التصوف فى سلوكه إلى الله

يبدأ سلوك هذا الطريق باستشعار رغبة ملحة تستولى على القلب فتبعث بها فى باطن المرء داعية قوية نحو تذوق الإيمان بالوجدان وعدم الوقوف عند حد التصديق

أو اليقين الذى حصل عليه بالتوارث أو بالاستدلالات المنطقية والعقلية فما أبعد الفرق بين من يعتقد من أهل مصر بوجود لندن فى انكلترا وهو لم يشاهدها فى حياته وإنما آمن بها لتوفر الأدلة العقلية على وجودها وبين من رآها رأى العين وعاش فيها زمنا . وتأخذ هذه الرغبة تزداد فى القلب تمكنا بمقدار صفاء الروح واستعداد النفس إلى الرقى الروحى فيتملكها الحنين والشوق إلى معرفة خالقها معرفة ذوقية لا نقلية ولا عقلية ويغلب أن تساور الانسان فى هذه الحالة شكوك وظنون وأوهام خفية فيما يتعلق بالمعتقدات الدينية دون أن يجد من عقله مرشدا كافيا لحل معضلاتها والخروج من ظلمات الحيرة المترتبة على تلك الظنون والشكوك فيلجأ عند ذلك إلى أحد المرشدين إلى طريق الحق من مشائخ الصوفية بشرط أن يكون هذا الشيخ من المحققين العارفين بالله ممن سبق لهم سلوك هذا الطريق بعينه وهو مأذون من شيخه بالتسليك فيه ويطلب إليه أن يدخله فى عداد أتباعه الآخذين فى السلوك إلى الله على يديه . ففى هذه الحالة يسمى الطالب (مريدا) أى يريد السير فى الطريق وهذه أولى المنازل وتسمى منزلة الارادة فيتلقاه الشيخ بالفرح والسرور ويأخذ عليه العهد بالتوبة من ذنوبه والتبرى من حوله وقوته وإخلاص النية فى مقصده وغايته القيام بما يفرضه الطريق السائر فيه من الاذكار والأوراد المشروعة فضلا عن القيام بما يستوجبه الدين من أتباع أوامره واجتناب نواهيه ويوصيه بملازمة التقوى فى السر والعلانية ومراقبة الله فى كل حال ثم يلقنه الذكر ويعطيه الأوراد ومن ثم يبدأ سلوك المريد ويسمى عند ذلك (سالكا)) جاعلا أكبر همه فى الدنيا الاشتغال بالعبادة والزهد والرياضة بحسب ما يرسمه له الشيخ فيقبل على الله بصدق النية وتصفية القلب عما سوى الله حيث ينتقل بذلك إلى مقام يسمى بمقام العبودية ويظل السالك يجاهد فى الطريق نفسه وهواه حتى يتغلب عليها بالاكثار من الضراعة والتذلل والتزلف إلى بارئه حتى إذا ما أقبلت عليه العناية الالهية وتقبلت مناجاته وضراعته ارتقت الرغبة فى قلبه فصارت عشقا لله وحبا لذاته العلية وهنا يصل السالك إلى مقام فى الطريق يسمى (مقام العشق) .

ولا يزال هذا العشق يتملك قلب السالك حتى يطرد من باطنه كافة الأمانى والحظوظ والرغبات الدنيوية فيقوده هذا الحال إلى مقام أرقى يعرف بمقام (الزهد

حيث تتم فيه تصفية القلب وجلاء مرآته جلاء يجعله بحيث يصير مستعدا لاستقبال ما تنعكس عليها من المعارف القدسية والأنوار الإلهية بدون واسطة العقل أو المخ أو أى عمل من أعمال الجسم الفسيولوجية .

وهنا يواصل السالك سيره إلى الله وهو دائم التفكير فى معبوده الأوحد لا يهنأ له عيش ولا يطيب له وقت إلا إذا اقترن بذكر الله والتسبيح بحمده وعند ذلك تنبثق فى قلب السالك أنوار تلك المعارف اللدنية أى التى تهبط على القلب بطريق الإلهام الباطنى بكيفية تجل عن الوصف وبها تحصل لديه أذواق وجدانية يتفهم بها مالم يكن يفهمه بعقله من معانى النبوة ويعرف هذا المقام عند المتصوفة بمقام (المعرفة) .

ويظل السالك بعد ذلك مواظبا على أذكاره وأوراده التى يتلقاها من شيخه آنا بعد آن بحسب ما يبدو للشيخ من استحقاق المريد لزيادة الترقى الروحى فيشغل بها أوقاته قارنا ذلك بالعزلة والخلوة والاقلال ما أمكن من الطعام والشراب والكلام والنوم إلا ما تستوجبه الضرورة والطبيعة مع ملازمة التهجد وقيام الليل والناس نيام فعند ذلك تتملكه حالة شريفة علوية روحية ينتقل بها إلى المقام الذى يسمى مقام (الوجد والهيام) وهو أسمى من مقام العشق إذ يستولى على النفس آثاره من جميع نواحيه .

فإذا بلغ الفقير هذا المقام السنى تواردت على قلبه النفحات الربانية والبركات الالهية تواردا تزداد به معرفته الباطنية بصفات الذات العلية ما يصل به إلى الحقيقة المجردة التى كان ينشدها عندما جاء إلى الشيخ وهو إذ ذاك مريد يطلب الوصول إليها . وتسمى هذه المنزلة عند أرباب الطريق بمقام (الحقيقة) .

على أن وصول السالك إلى هذا المقام لا ينتهى عنده سلوك الطريق بل إنه يظل بعده يرتقى بالروح إلى منازل ثلاث أخرى تعرف بمنزلة (الفناء فالبقاء فالبقاء) أما الفناء فمعناه فناء العبد عن حظوظه وعن نفسه فى الله بل عن اختياره أيضاً ويكون كما قال سيدى أبو الحسن الشاذلى لبعض مريديه « إذا شئت أن تختار فاختر أن لا تختار وفر من ذلك المختار ومن فرارك هذا ومن كل شىء إلى الله تعالى » .

ففى هذا المقام تتجلى عظمة الخالق على قلب السالك فلا يرى إلا الله حتى نفسه

لا يرى لها أثرا ولا يجد فى الوجود من الكائنات إلا واجب الوجود وحده وتنمحى آثار جميع الموجودات فى وجوده تعالى وتنجلى فى فؤاد الفقير معنى قوله عز وجل فى القرآن مخاطبا عباده المتقين : وأنيبوا إلى ربكم وأسلموا له . ويتضح له بعد الإفاقة من سكر الوصول إلى هذه الحال الرهيبة معنى قول الحلاج «ما فى الجبة إلا الله» أى أن نفسه تلاشت فلم يعد لوجوده عنده من أثر وقد وصف الامام جلال الدين الرومى شيخ الطريقة المولوية فى أبيات له بالفارسية حالة الفناء أبدع وصف ويلوح لى أن هذه الأبيات لم تترجم إلى العربية حتى الآن وهذا مضمون ما قاله فى ذلك .

« وحينما يستولى روح من الجن على لب انسى من الناس تضعف صفات الانس فيه إلى حد التلاشى ويصبح كل ما يصدر منه من قول آتيا من وحى ذلك الروح الجنى وسلطانه لا من عقل هذا الانسى وتفكيره إذ تتلاشى ذاتيته وقتا ما يعود فى خلاله كأنه الجنية ذاتها .

« وفى تلك الحالة العجيبة تصبح العربية عند التركى لغته إن كانت العربية لغة ذلك الجنى المستولى عليه فينطق بها دون أن يعرف منها شيئا وهذا يحدث منه فى غير إلمام يحسه أو وحى يتلقاه ومتى عاد الانسى إلى نفسه وأفاق ، لم يذكر لفظا واحدا مما قاله وهو تحت ذلك السلطان فإذا صح هذا عن الجنية وسلطان استيلائها على لب إنسان ، أفيكون خالق الانسان والجان أقل شأنا وأضعف سلطانا من الانس والجان ؟ حاشا أن يكون ذلك شأن الاله الواحد القهار » .

وفى أبيات له أخرى يقول سيدى جلال الدين بالفارسية ما ترجمته بالعربية :

« لو تكلم أمامكم رجل سكران من أثر ما شربه من روح الخمر بكلام غريب قلتم إنها الخمر التى تتكلم أفيكون لروح الخمر هذا الأثر ولا يكون لروح الله مثله إذا استولى على قلب إنسان فيجعله ينطق بكلام ليس بكلامه وعبارات ليست هى عباراته»

إلا أن القرآن وإن جاءنا من بين شفتى النبى محمد فقد كفر من قال إنه ليس كلام الله .